النقوش القديمة

اكتشاف النقوش ودراستها

تدل مادة نقش في اللغة على جملة من المعاني، منها ما يحدثه الصانع على الأجسام الصلبة من أشكال رمزية أو صور ورسوم. جاء في لسان العرب لابن منظور «نقشه ينقشه نقشاً وانتقشه: نمنمه، فهو منقوش... والنقّاش صانعه، وحرفته النِّقاشة، والمنقاش الآلة التي ينقش بها، أنشد ثعلب:

فوا حزناً إنّ الفراق يروعني
بمثل مناقيش الحليّ قصار

والنمنمة التي أشير إليها في النص السابق هي كما يقول ابن منظور «خطوط متقاربة قصار شبه ما تنمنم الريح دقاق التراب، ولكل وشي نمنمة. وكتاب منمنم: منقّش».

والنقش بهذا المعنى يشمل ما نقش من أختام وما نقش من كتابات وخطوط على الحجارة، وما أبرز من كتابات إسلامية على جدران المساجد وغيرها.

تعد الجزيرة العربية من المراكز الأساسية التي كان لها شأن مهم في العالم القديم؛ وذلك لسببين: أحدهما الموقع الاستراتيجي، إذ هي تقع بين مراكز حضارية كان لها شأن مشهود في الصرح الحضاري، ففي الشرق توجد أراضي إمبراطورية عيلام التي تقود إلى مواقع الحضارات الهندية والصينية وغيرها. أما من الشمال فتحدها أراضي الرافدين وبلاد الشام، ومن الغرب توجد مصر بحضارتها العريقة. والسبب الآخر: أنها مخزن لشعوب وقبائل دفعتهم ظروف متعددة، مثل الحروب الداخلية وتغيرات المناخ وتزايد أعداد السكان وغيرها، إلى الاستقرار والاستيطان في مناطق خارج الجزيرة العربية. وقد أثبتت هذه الشعوب والقبائل، عند استقرارها، أهليتها ليس

فقط في المشاركة بل في نشر سيطرتها السياسية والثقافية والدينية. ومن نماذج هذه الشعوب والقبائل: الأكادية والبابلية والآرامية التي أثبتت آثارهم صنيعهم المتميز في الصرح الحضاري. ومن أبرز ما خلفته لنا هذه الشعوب والقبائل في مواطنها الأصلية الكتابات والنقوش. فقد حفظت لنا الأيام نماذج هائلة من أنماطها وأنواعها.

وتعدّ المملكة العربية السعودية أكثر المواقع في الجزيرة العربية احتواءً لمثل هذه الكتابات والنقوش الساميّة، كالرموز الأكادية المكتوبة على الأختام التي عثر عليها في مواقع متعددة من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية، وبعض الكتابات ذات الأشكال والرموز الهيروغليفية (الأنصاري ١٩٧٩ ج١: ٧٢)، والنقوش الإغريقية (أطلال ١٤١٠: ع ١٢). بالإضافة إلى الكم الهائل من الكتابات والنقوش السامية الغربية والجنوبية بمختلف أنواعها، مثل النقوش الآرامية القديمة، الواسعة الانتشار الموجودة فقط في تيماء القديمة، والكتابات النبطية المنتشرة بشكل مكثف في المنطقتين الشمالية والغربية، ونقوش البادية العربية (الثمودية/ الصفوية). والمملكة العربية السعودية من أكثر المواقع ثراءً بمثل هذا النوع من الكتابات إذ هي موجودة في معظم مناطقها، وخاصة في شمال المنطقة الوسطى (نجد) وشمالها الغربي، والنقوش الديدانية واللحيانية التي لم يعثر عليها إلا في شمال الحجاز وعلى الطرق التجارية المتصلة بها إلى بلاد الشام وإلى العراق. كما انتشرت كذلك نقوش المسند الجنوبي القديم المعيني والحميري والسبئي في أجزاء مختلفة من مناطق المملكة العربية السعودية.

هذه الأنماط والنماذج من العلامات الكتابية لفتت انتباه العلماء العرب المسلمين الأوائل أمثال ابن الكلبي الذي قال إن كتاب المسند حرف لا يلتزق ولا يتصل حرف بحرف وإذا انقضت الكلمة عملت علامة عند منقطعها. ويقول ابن النديم:

> إن حمير كانت تكتب بالمسند على خلاف أشكال ألف وباء وتاء ورأيت أنا جزءاً من خزانة المأمون ترجمته ما أمر بنسخه أمير المؤمنين عبدالله المأمون أكرمه الله من التراجم وكان في جملته القلم الحميري (١٩٧٨: ٨).

وقد شرح الهمداني في الجزء الثامن من كتاب الإكليل أصول كتابة الخط المسند وقراءته وأوضح كيفية كتابة الحروف وقراءتها واختلاف أشكال بعضها ورسمها

وألفاظها. وبذلك أصبحت المعلومات التي ذكرها الهمداني الأساس الذي اعتمد عليه العلماء فيما بعد في فك رموز وطلاسم هذه الكتابات المسماة بالكتابات الحميرية.

وبعد غياب طويل عاد الاهتمام في بداية القرن التاسع عشر الميلادي بمثل هذه الدراسات عندما قام الرحالة الغربيون أمثال بوركهارت Burchardt (١٨٢٨م) وروميل ومورلي وويلستيد Wellsted (١٨٣٨م) والسويدي فالين Wallin (١٨٤٥-١٨٤٨م) وبيرتون Burton (١٨٥٥-١٨٧٩م) بزيارة لبعض مناطق المملكة، وسجلوا مشاهداتهم وأحاسيسهم عن المناطق التي مروا بها كلٌ حسب ميوله واهتماماته. وتنامى هذا الاهتمام في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عندما جاءت دفعة أخرى منهم فيها الرحالة الإنجليزي داوتي Doughty (١٨٧٩م)، الذي سجل عدداً من النقوش العربية القديمة، والرحالة الفرنسي هوبر Huber (١٨٨٣م)، الذي نقل مسلة تيماء المشهورة إلى متحف اللوفر، والرحالة الألماني إويتنج Euting (١٨٨٤م). وقد قاموا باستنساخ قدر صالح من النقوش العربية المختلفة اللهجات. وعند الانتهاء من إنشاء سكة حديد الحجاز (١٩٠٤-١٩٠٦م) تزايد قدوم الرحالة إلى المنطقة حيث وصل مورتيز Muritz (١٩٠٦م) إلى موقع قُـرَيَّة في الشمال وتمكن من جمع عدة نقوش منها. تلاه الأبوان الفرنسيان جوسين Jaussen وسافيناك Savignac (١٩٠٩-١٩١٤م) اللذان تمكنا من الحصول على كمية هائلة من النقوش العربية القديمة ضمنت في كتابهما المتميز المعروف باسم بعثة آثارية إلى الجزيرة العربية. وتعد دراستهما وأبحاثهما الرائدة لهذه الكتابات الأساس الذي انطلق منه العلماء المهتمون بدراسة هذه النوعية من النقوش والكتابات، خصوصاً النقوش اللحيانية. ويعد فيلبي Philby، برحلاته وزياراته المتعددة التي غطت أجزاءً كثيرة من المملكة العربية السعودية (١٩٣٩-١٩٥١م)، أحد أبرز الرحالة في رصد وتسجيل الكتابات العربية بأنواعها المختلفة. والجدير بالذكر أن العالم البلجيكي ركمانز Ryckmans والفرنسي ليبنز Lippens رافقا فيلبي (١٩٥١م) عند زيارته لجنوب المنطقة الوسطى والمنطقة الجنوبية الغربية من المملكة.

وفي بداية منتصف القرن العشرين أصبحت الرحلات الاستكشافية ذات صفة علمية. فقد تمكن الباحث الكندي ونيت Winnet والأمريكي ريد Reed عند

زيارتهما للمنطقتين الشمالية والشمالية الغربية (١٩٦٢م)، من تصوير كم غير قليل من النقوش العربية القديمة وتسجيلها، وضمنت في كتابهما سجلات قديمة من شمال الجزيرة العربية. ثم تمكنت الباحثة الألمانية روث شتيل أثناء زيارتها للمملكة العربية السعودية (١٩٦٦م) من الحصول على بعض النقوش العربية القديمة، كاللحيانية والآرامية القديمة. وفي سنة ١٩٦٨م حصلت بعثة معهد الآثار بجامعة لندن خلال زيارتها للمنطقة الشمالية على عدد من هذه الكتابات والنقوش. وأخيراً وفق العالم البلجيكي جام Jamme، أثناء زيارته لمدينة عرعر (١٩٧٠م)، في الحصول على نقوش صفوية. كما درس نقوشاً خطت بالقلم الجنوبي القديم (المسند) أرسلت إليه من منطقة الأحساء. وقام أيضاً برحلة إلى الفاو سنة ١٩٧١م ومسح معظم النقوش التي على سفح جبل طويق المطل على الفاو. ويعتبر المؤرخان السعوديان، حمد الجاسر وعبد القدوس الأنصاري، من أوائل الذين سعوا في رصد هذه الكتابات والنقوش، ويعد عبدالرحمن الطيب الأنصاري أول السعوديين الدارسين لهذه الكتابات في رسالته للدكتوراه عن الكتابات اللحيانية. ثم تلاه الباحث محمود الروسان في رسالته للماجستير النقوش الثمودية والصفوية، ثم تلاهما الباحثان محمد حمد السمير النجم الذي درس عدداً من نقوش البادية العربية الثمودية، أطلال (١٤١٠ : ١٢) وسليمان بن عبد الرحمن الذييب الذي نشر العديد من الأبحاث عن هذه الكتابات. وكان الباحث عبدالله آدم نصيف قد سبقهما في تسجيل وتصوير العديد من الكتابات العربية القديمة عند مسحه لمنطقة العلا (١٩٧٨م). كما قام الباحث حسين أبو الحسن بدراسة ما يزيد عن مائتي نقش لحياني جديد من جبل عكمة بالقرب من العلا خلال إعداده لرسالته للماجستير. ودرس الباحث خالد إبراهيم اسكوبي ما يقارب ثلاثمائة نقش جمعها من منطقة رم جنوب غربي تيماء في الطريق إلى الحجر ودادان (العلا) للحصول على درجة الماجستير.

ومنذ عام ١٣٧٥هـ تبنت الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية مشروع المسح الأثري الشامل لحصر وتسجيل كافة المواقع الأثرية التي تعود إلى فترات حضارية مختلفة (عصور حجرية، ما قبل الإسلام، إسلامية)، ويشمل المسح تسجيل ما تحويه هذه المواقع من معثورات أثرية، كالكتابات العربية

القديمة وغيرها. ومع تزايد المواقع التي تضم كتابات ونقوشاً رأت الإدارة العامة للآثار ضرورة تخصيص بعثات خاصة لحصر الرسوم الصخرية والكتابات والنقوش ورصدها وتسجيلها. وقد أُنجز حتى الآن من هذا المشروع خمسة مواسم، غطت أجزاءً من المناطق الشمالية، والشمالية الغربية، والغربية، والجنوبية، والمنطقة الشمالية من المنطقة الوسطى. وقد حصرت البعثة ألفاً وتسعة عشر موقعاً خاصاً بالنقوش، وجد فيها ما يزيد على خمسة آلاف وخمسمائة نقش من نقوش البادية العربية، منها ٥٤٣٨ نقشاً لحيانياً وثمودياً، والباقي صنف نقوشاً صفوية، ومنها ٣٧٤ نقشاً لحيانياً و١٠٧ نقوش جنوبية قديمة، و٥٢٤ نقشاً نبطياً و١٥ نقشاً إغريقياً. والملاحظ أنه على الرغم من أن الأجزاء الشمالية من نجد فيها أكثر نقوش البادية العربية (الثمودية) إذ بلغت ٢٣٦٧ نقشاً، فإنه لم يعثر بها على أي من النقوش اللحيانية أو الإغريقية، غير أنه عثر على أربعة نقوش من النقوش النبطية، على ثلاثة نقوش ومن المسند الجنوبي. وسجلت البعثات ٤٦٠ موقعاً في المنطقتين الشمالية الغربية والغربية، احتوت على كافة النقوش العربية القديمة، مثل نقوش البادية ١٨٤٥ نقشاً، والإغريقية أربعة عشر نقشاً بالإضافة إلى تميز هذه المنطقة بالنقوش اللحيانية. أما المنطقة الشمالية فقد وصلت مواقع النقوش بها إلى ٣١١ موقعاً، ضمت ٩٧٩ نقشاً ثمودياً من نقوش البادية العربية (الثمودية) ثم ما يزيد على ٢٠٠ من نقوش البادية العربية المعروفة باسم الصفوية و١١٩ نقشاً نبطياً، ونقشاً واحداً إغريقياً، ولم يعثر بها على أي من النقوش العربية الجنوبية (المسند). وأما المنطقة الجنوبية من المنطقة الغربية فحوت ٧٤ موقعاً، بها ٢٧٤ من النقوش الثمودية و٤١ نقشاً جنوبياً، ونقشاً نبطياً واحداً. ومع ذلك فما يزال مسح النقوش القديمة وتسجيلها أمراً قائما عند إدارة الآثار والمتاحف.

نقوش المسند

هي تلك النقوش التي يعتقد أنها تطورت في جنوب الجزيرة العربية وأنها ولدت في مكان ما خارج الإقليم الجنوبي للجزيرة العربية. وتنقسم هذه النقوش استناداً إلى بعض خصائصها اللغوية، إلى لهجات ست هي: السبئية والمعينية والقتبانية والحضرمية والأوسانية والحميرية، وإن كان هناك رأي بأن الحميرية

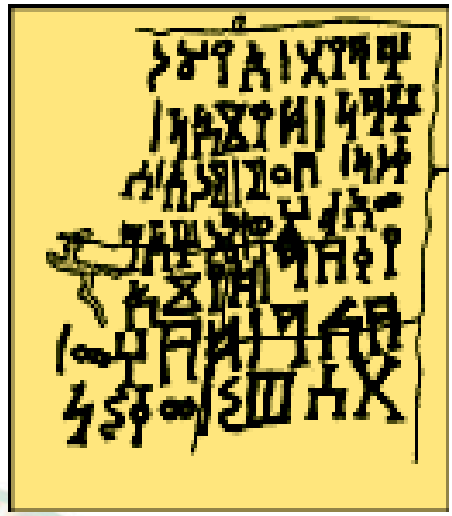

صورة مفرغة لنقش عربي جنوبي، كتب بالقلم السبئي – المنطقة الجنوبية

ليست لهجة قائمة بذاتها وإنما هي اسم لقبيلة كتبت نقوشها بلهجة سبئية، ويضاف إليها أحياناً الكتابة الحبشية القديمة. ويعزى هذا التقسيم إلى المواقع الجغرافية وإلى القبائل (الدول) التي تحدثت بتلك اللهجات. وتبلغ حروفها تسعة وعشرين حرفاً صامتاً، بزيادة حرف واحد عن الهجائية العربية المعروفة، وتقرأ نقوشها من اليمين إلى اليسار، لكنها في بداياتها كانت تقرأ أحياناً على نسق محراثي، أي من اليسار إلى اليمين وبالعكس وهكذا. وأبرز ما يميزها عن غيرها من النقوش السامية الأخرى، غير خصائصها اللغوية وأشكال حروفها، استخدامها للفاصل الذي يفصل بين كلمات السطر الواحد مما سهل الكثير على القارئ.

ومن هذه الخاصية أطلق على هذا النوع من الكتابات اسم المسند، أي من

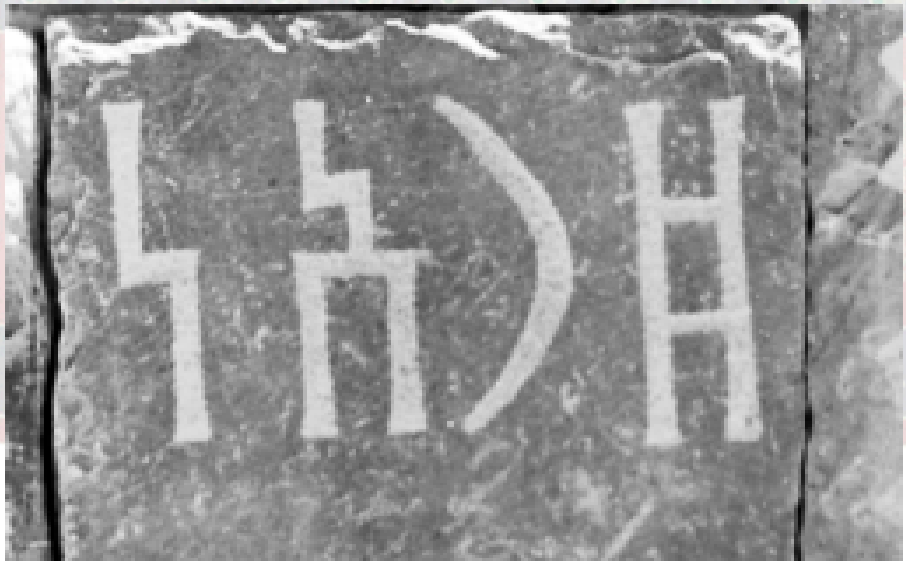

نقش بخط المسند – منطقة الأخدود بنجران

استناد الحروف إلى هذه الفواصل، أو استناد حروفها بعضها إلى بعض. وهناك من يرى أن كلمة سند تعني: كَتَبَ، وعليه يكون المسند هو الخط المكتوب، على الرغم من أن بيستون أسماها الكتابات الصيهدية لأن حواضر ممالك هذه النقوش تركزت في منطقة عرفت عند الهمداني باسم صيهد، وتسمّى اليوم رملة السبعتين.

إنّ الطبيعة المتناسقة لأشكال حروف المسند جعلت بعض العلماء يميل إلى الاعتقاد بأن المسند إما أن يكون قد جاء عن طريق الكتابة السينائية، أو عن طريق الجزر المواجهة للساحل السوري (اليونان)، إذ إنه من المفترض والطبيعي أن تكون لهذه الأشكال المتناسقة بدايات، ولذا لا نستبعد أن تكون نقوش البادية هي بدايات المسند. ويجب ألا تُغفل حقيقة أنّ القبائل العربية الجنوبية هاجرت من الشمال، وهناك من يقول إنهم قدموا من موطنهم الأصلي في جنوب العراق ويدلل على ذلك بتشابه بعض الأنماط المعمارية بين الحضارتين، حضارة جنوب الجزيرة العربية وحضارة بلاد الرافدين، كأسلوب بناء المعابد المبكرة في جنوب الجزيرة الذي يشابه بناء الزقورات. بالإضافة إلى التشابه في بعض الأنظمة السياسية، مثل دور المكرب اليمني ودور الباتزي في بلاد الرافدين. كما أن هناك من يقول إنهم قدموا من شمال غرب الجزيرة العربية، ويدلل على ذلك بتميز قبائل وشعوب هذا الجزء بقبول حكم المرأة، مثل الملكات الشماليات اللاتي ظهرن في دومة الجندل؛ شمس وزبيبة وغيرهما، ولم نجد أي دليل مادي أو كتابي على قيام المرأة بنفس دورها السياسي في الجنوب. ومن قائل إنهم جاءوا من شمال نجد لأن هذه المنطقة تعد من المناطق التي تحتوي على مواقع من العصور الحجرية بكافة فروعها، وقد دفعت التغيرات الجوية قاطنيها إلى تركها بحثاً عن مواقع أكثر ملاءمة، فهاجر بعضهم إلى الشمال؛ مثل الآراميين وآخرون إلى الجنوب، مثل القبائل الجنوبية. ومن قائل إنهم قدموا من مكان ما في سوريا، وذلك للتطابق الكبير بين أسماء الأعلام السبئية المبكرة وأسماء الأعلام الأوغاريتية مما يوحي بوجود علاقة عرقية بينهما. وعلى أي حال فإنه نظراً لقلة مواقع آثار العصور الحجرية في الجنوب ولإبهام بدايات هذه الحضارة المتميزة، مال كثيرٌ من العلماء إلى أن هذه القبائل قد تركت موطنها الأصلي في الشمال لظروف سياسية ونزحت إلى

الجنوب في فترة تسبق القرن التاسع قبل الميلاد.

وتمتاز النقوش العربية الجنوبية، بعدم وجود حروف لأصوات لينة فيها، وانفصال الحروف بعضها عن بعض. وعدم تغير شكل الحرف بتغير مكانه، وأن أداة التنكير هي حرف الميم في آخر الكلمة، كما في الأوجاريتية والأكادية، وأن أداة التعريف هي حرف النون في آخر الكلمة. وهذه النقوش قسمت من حيث موضوعاتها إلى عدة أقسام، أهمها نصوص لتنظيم الحياة العامة؛ وهي، على العموم، المراسيم التي يصدرها الملك أو القبيلة أو المعبد لمعالجة موضوعات مختلفة، مثل أنظمة السوق، واستئجار الأراضي وتوزيعها وغيرها من الأمور التنظيمية الأخرى، ثم النصوص الدينية، وهي نصوص الهبات والقرابين، وهي أكثر النصوص القديمة، والنصوص التذكارية، والنصوص التي تمجد الملك أو الشخصيات المهمة -خصوصاً في الفترة الحميرية- والنصوص المتعلقة بالممتلكات العامة والخاصة، مثل إقامة المنشآت الدفاعية والآبار والسدود والقنوات والأعمال الزراعية والمساكن، والمعابد.

ولم يعثر في المملكة العربية السعودية حتى الآن إلا على بعض هذه النصوص المعينية، وعددها مائة وثمانية وأربعون نقشاً في غرب المملكة في منطقة العلا في موقعي الخريبة والمزاحم، وكذلك

نقش تذكاري على الحجر الجيري يحمل كتابة عربية جنوبية قديمة بالخط المسند الجنوبي

نقش بالقلم المسند الجنوبي، وهو تسجيل بناء مقبرة لعجل بن هفعم

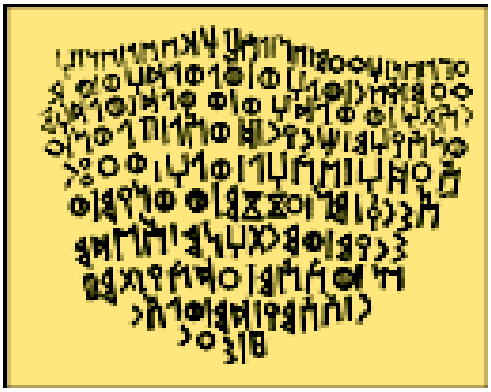

صورة مفرغة لنقش عجل بن هفعم

وجدت خمسة نقوش جنوبية بشكل عام في موقعي نقع بني مر وروافة في الشمال الغربي. أما في الجنوب الغربي فقد عثر على واحد وأربعين نقشاً متنوعاً، منها سبعة عشر نقشاً في الطائف، ونقش واحد في كل من رنية والنماص، واثنين وعشرين نقشاً في منطقة بيشة؛ في عرق الطابق، والصقور، وتين. أما في الجزء الأوسط فقد عثر في شماله على ثلاثة نقوش، وفي جنوبه على عشرات المخربشات، وفي المواقع المحيطة بقرية الفاو عثر على مئات من النصوص والمخربشات التي تحوي أسماء أعلام وقبائل عربية هي في الأصل قبائل جنوبية.

كما تبدو في هذه المجموعة بعض الظواهر اللغوية التي نجدها لدى كتاب الشمال والجنوب (الأنصاري د.ت، مج٣). وفي المنطقة الشرقية من المملكة عثر على ما يزيد على ثلاثة وعشرين

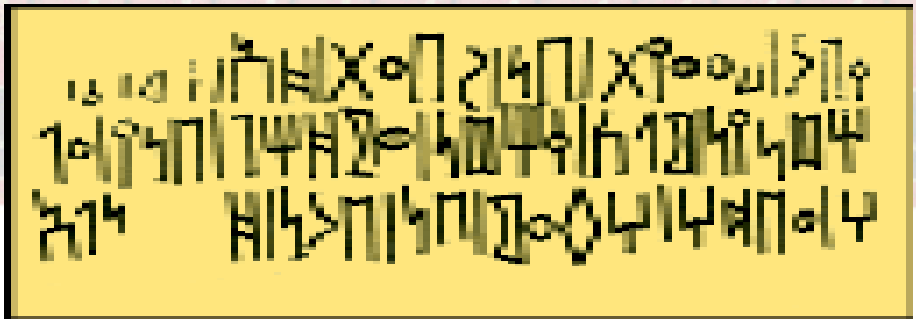

صورة مفرغة لنقش معيني لمعاوية بن ربيعة (قرية الفاو)

نقشاً بخط المسند (النقوش الحسائية) حوت أسماء أعلام وقبائل وآلهة. كما وجد على صخرة في وادي ماسل الجمح، على بعد خمسين كيلاً من الدوادمي، نص حميري يتحدث عن أن الملك الحميري أبي كرب أسعد بن الملك حسان، «ملكي كرب يهامن»، مر من هنا في طريقه إلى موقع ما في الشمال من هذا الموقع.

النقوش الثمودية والصفوية

هي النقوش والنصوص المستخدمة من قبل القبائل العربية التي قطنت الصحاري، خاصة وسط وشمال المملكة العربية السعودية وجنوب بلاد الشام. ولكنها تنسب خطأً إلى ثمود التي أدّت دوراً حضارياً، فقد ذكرت في القرآن الكريم (الأعراف آية ٧٣ و٧٤)، وعرفت أيضاً في الحوليات الآشورية باسم ثمودي (نقش سرجون الثاني ٧٢١-٧٠٥ ق.م). وكذلك النقوش أو النصوص التي وجدت مكتوبة على صخور سوداء ملساء، ولأن معظمها وجد في منطقة عُرفت بالصفا -وردت في أحد النقوش اليونانية باسم صفائن- في جنوب بلاد الشام؛ نسبها بعض العلماء خطأً إلى الصفا فأصبحت تسمى الصفوية على الرغم من عدم وجود أي دليل كتابي أو مادي يدعم هاتين التسميتين.

وقد عثر في المملكة العربية السعودية، وفي شمالها بالتحديد على ما مجموعه ٣٩٤ نقشاً من هذا النوع الأخير في الصفوي (الذييب ١٩٩١، مج٦، جـ١). وما زال بعض المهتمين يستخدم مصطلح النقوش الصفوية رغم

نقش عربي شمالي كتب بالقلم الصفوي
شمال المملكة العربية السعودية

نصوص عربية كتبت بالقلم الثمودي في موقع تبحر على بعد ٢٠٠ كم إلى الشمال الغربي من مدينة تبوك

أنه لا اختلاف بين الصَفوية والثمودية يمكن الاعتداد به، فأشكال حروفهما تقريباً متطابقة. وينحصر الاختلاف البسيط بين أشكال حروف النصوص المكتوبة على صخر الصفا (الرّجم) وبين النقوش المكتوبة على الجبال والصخور الثابتة في أنّ الكتابة على النوع الأول أبسط وأسهل، لأن الكاتب يسيطر على موضع الكتابة. ولهذا فغالباً ما تكون أشكال الحروف المنقوشة على الرّجم أكثر رونقاً وتهذيباً وأفضل أسلوباً. كما لا يوجد اختلاف كبير في المظاهر والخصائص اللغوية بين ما يعرف بالصفوية والثمودية إلا بقدر الفوارق اللهجية بين القبائل؛ ذلك أن الفعل وصيغه المختلفة من الماضي والمضارع والأمر، وصيغة اسم الفاعل، والأفعال المبنية للمعلوم أو المجهول معروفة في كلا النوعين. ومن دون الخوض في تفاصيل إضافية، فإن الاختلاف البسيط بين طبيعة النقوش المكتوبة على الرّجم وأسلوبها، وتلك المكتوبة على الجبال والصخور الثابتة لا يوحي بضرورة فصل بعضهما عن بعض، وما الاختلاف بينهما إلا كالاختلاف بين لهجتين لقبيلتين عربيتين، مثل قريش وتميم. لذا فإن التسمية الأكثر قبولاً هي نقوش البادية أو نقوش أرباب القوافل لأن

معظم هذه النقوش تقع على طرق القوافل، وهي تعبر عن مشاعر القبائل التي قطنت هذه المناطق من الجزيرة العربية.

وتنتشر هذه النوعية من النقوش في معظم مناطق المملكة، ويصل عدد نقوشها المعروفة حتى الآن إلى ما يزيد على ستة آلاف نقش. فقد عثر على ما يزيد على ٥٧٨ نقشاً في المنطقة الشمالية الغربية، أبرزها موزع بين مواقع ممر بطينة ونقع بني مر وقحازه وروافة والرايس وبقار والعصافير والديسة ووادي السخنة. أما في المنطقة الشمالية فقد سجل أكثر من ٩٩٩ نقشاً في مواقع متعددة حول الجوف وسكاكا والقريات. وفي منطقة شمال الوسط من المملكة وصل عدد النقوش المسجلة إلى ما يزيد على ٢٣٦٠ نقشاً. ولذا فهي تعد من أكثر المناطق غنى بمثل هذه النوعية من النقوش، وأبرزها وجد في حائل والمواقع المجاورة لها مثل جبّة، وجبل ياطب، والقصيم، وقرب المدينة المنورة، مثل الحناكية ومواقع في مهد الذهب. أما جنوب نجد فقد عثر فيها على نقوش في مواقع مختلفة حول ليلى، وكذلك في مواقع أخرى مثل جبل عرفاء والحفنة ووادي ماسل. وقد سجل ما يزيد على١٢٦٧ نقشاً في المنطقة الشمالية الغربية، أهمها مواقع الخبو الغربي وحسو أبامغير وخبو خولة وجبل غنيم في تيماء. وكذلك مواقع طور الباشا وشخنب وخبو الخويرة في العلا، بالإضافة إلى مواقع أخرى بخيبر. أما في المنطقة الغربية الجنوبية فقد سجل ٢٤٧ نقشاً في مواقع أهمها: وادي ألاب ودنن والطور وعرق الطابق والظباة بوادي بيشة، ووادي قار في تبالة، وجبل سليطينة في الطائف.

وتكتب هذه النقوش من اليمين إلى اليسار أو العكس، أو على شكل دائري، ويبلغ عدد حروفها ثمانية وعشرين حرفاً. وقد تصور بعض الباحثين، نظراً لمشابهتها أشكال حروف المسند الجنوبي، أنها قد اشتقت منه وأعادوها من دون دراسة معمقة إلى الفترة الواقعة بين ٥٠٠ق.م-٥٠٠م. إلا أن احتمال قدم خط نقوش البادية عن خط المسند غير مستبعدٍ خصوصاً وأن الفترة الزمنية لظهور القبائل العربية ونشاطها أقدم من الفترة الزمنية لظهور القبائل العربية الجنوبية التي هاجرت في الأساس من شمال نجد أو شمال غرب الجزيرة العربية أو جنوب بلاد الرافدين. ولذا فإنه من المقبول القول إن أشكال أحرف المسند

اشتقت من الشمالي. وهذه النقوش الشمالية جاءت معبرة عن خلجات القبائل العربية ورغباتها، فقد أعطت فكرة جلية وواضحة عن أمور كثيرة حول المجتمع البدوي ولم يكن بالإمكان معرفتها لولا ما تضمنته هذه النقوش التي بينت كونه مجتمعاً قبلياً يتكون من عشائر وأهل، والأهل أكبر من البيت وأصغر من العشيرة، وبيوت والبيت هو ما يمثل الأسرة والعائلة في هرم النسب العربي القديم، وأنهم قد زاولوا الزراعة والصيد. كما تدل الرسوم الصخرية بجانب هذه النقوش على اشتغالهم بالرعي؛ فقد رعوا أنواعاً من الحيوانات مثل الإبل والخيل والماعز. وتدل ظهور مفردات وألفاظ نحو «س ق م»، سقم، «ع ل»، عَلّ، «د أ»، داء، «ب ر ص»، برص، على معرفتهم بالداء والدواء. وقد أفادتنا هذه النقوش بكم هائل من أسماء الأعلام المنتشرة عندهم، وتعد دراستها ذات فائدة كبيرة في استخلاص جوانب عدة لهذه القبائل العربية، مثل الجوانب اللغوية والاجتماعية والدينية، ولذلك قسم العلماء هذه النقوش إلى عدة أنواع نحو النقوش التذكارية ونقوش المودة والمحبة ونقوش الحرب حيث تذكر المعارك والغزوات والانتصارات.

النقوش اللحيانية

هي النقوش والنصوص التي كتبت من قبائل عرفت في المصادر الإسلامية باسم قبائل لحيان، ويعتقد بأنهم من قبيلة جرهم العربية، وذكر المؤرخ الروماني بليني أنها قبيلة عظيمة سيطرت على خليج العقبة. ولعل أول من جمع هذه النقوش خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي تشارلز داوتي Doughty أثناء زيارته لمنطقة العلا شمال المدينة المنورة، إذ تمكن من استنساخ حوالي ثلاثين نقشاً لحيانياً. إلا أن

نقش لحياني – منطقة العلا

الدراسة التي قام بها في بداية هذا القرن الأبوان الفرنسيان جوسن Jaussen وسافنياك Savignac تعد القاعدة التي انطلق منها العلماء المهتمون بدراسة هذه النوعية من الكتابات. فقد جمعا من موقع الخريبة حوالي ٣٧٩ نقشاً نُشرت في كتابهما المتميز بعثة آثارية إلى الجزيرة العربية. ثم أعادت الإدارة العامة للآثار والمتاحف السعودية تصوير ما سبق أن جمع جوسن وسافنياك ضمن برنامجها العام للمسح الشامل لمواقع الكتابات والنقوش اللحيانية، وتمكنت من حصر ما يزيد على أربعمائة نقش وجدت في شمال الحجاز في مواقع عدة أهمها تلعة الحماد وأم درج وعكمة بمنطقة العلا، ومواقع في وادي السخنة والديسة والزاوية وروافة بمنطقة تبوك.

ويبلغ عدد أحرف الهجاء اللحيانية، المشابهة أشكالها مثيلاتها في المسند الجنوبي ثمانية وعشرين حرفاً. وهذا مما قاد العلماء إلى الاعتقاد بوجود علاقة بينهما، وأن إحداهما قد تطورت عن الأخرى. واستناداً إلى أشكال هذه الحروف قسمت هذه النقوش إلى نقوش لحيانية مبكرة ومتوسطة ومتأخرة (القرن الأول الميلادي). ويضيف بعض العلماء نقوشاً لحيانية مبكرة متوسطة ومتوسطة متأخرة، فعندما يكون مثلاً حرف الميم مفتوحاً إلى الأسفل يعدّ النقش لحيانياً متأخراً، وإذا كان مقفلا كان النقش مبكراً. ويبدو أن هذه النوعية من الكتابات انتشرت على شكل مخربشات انتشاراً واسعاً في الجزيرة العربية، فقد وجدت منتشرة في شمال غرب المملكة حتى دومة الجندل شرقاً، وفي مناطق مختلفة من شمال الحجاز، وفي الأحساء، وفي قرية الفاو، إلى جانب بعض الكتابات اللحيانية التي وجدت على عملات لحيانية عُثر عليها في اليمن أو ما يعتقد بأنه أشكال لحيانية وجدت على زهرية في تل أبي الصلابيخ بجنوب العراق (علي ١٩٧٢، مج٢: ٢٥٥)، على الرغم من الفترة الزمنية الطويلة نسبياً التي عاشتها المملكة اللحيانية ما بين القرن الخامس وحتى نهاية القرن الأول قبل الميلاد.

ومن دراسة هذه النقوش والنصوص استطاع العلماء أن يعرفوا الكثير من المعلومات عن حياة اللحيانيين. فالألماني كاسكل، مثلاً، تمكن من إبراز الجانب السياسي لدولتهم حين قدمت له هذه النصوص أسماء بعض ملوكهم (اثني عشر ملكاً) مثل تخمي Tachmi ، بتخمي Ptachmy وتلمي Tulmi، وكذلك الجانب الاقتصادي مستفيداً من النقش اللحياني

الذي أورد حادثة الزلزال في مدينة ديدان، حيث أدى سقوط سقف معبدها إلى وفاة عدد من أعضاء مجلس المدينة. وتدل نصوص لاحقة على أن إعادة البناء استغرقت فترة زمنية، وهو ما يدل على أن الظروف الاقتصادية لم تكن مناسبة. وقد تمكن عبد الرحمن الأنصاري، بعد دراسة أسماء الأعلام التي وردت ضمن هذه النقوش في أطروحته للدكتوراه دراسة نقدية مقارنة لأسماء الأعلام اللحيانية، من استخلاص نتائج ذات قيمة لغوية. كما أبرزت هذه النقوش عدداً من الآلهة، مثل الإله ذوغابت، وسليمان إله القوافل وحارسها، وإله الحكمة كاتب، المقابل للإله المصري توت وغيرهم.

النقوش الآرامية

استُخدم هذا النوع من الخطوط، المكون من اثنين وعشرين حرفاً صحيحاً والمتطور عن الخط الفينيقي، لدى قبائل أطلق عليها قديماً وحديثاً اسم الآراميين وكلمة أرامو أو أرامي وتعني العلو والارتفاع. وقد ظهر الاسم في المصادر الكتابية القديمة، خصوصاً الآشورية خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، مرتبطاً باسم الأخلامو أي الرفاق أو المتحالفين، وهو حلف من القبائل الآرامية التي هاجرت من الجزيرة العربية. وفي القرن التاسع قبل الميلاد بدأت الإمبراطوريات والممالك المحيطة في مصر وبلاد الرافدين تنعتهم باسم الآراميين، لكنهم عرفوا قبل ذلك خلال القرون السابقة للقرن الثاني عشر قبل الميلاد باسم «سوتو»، وسوتي أي: الرحل. وهو كذلك تحالف بين القبائل الآرامية القديمة التي هاجرت في فترات زمنية متقاربة من الجزيرة العربية.

ويظهر لنا من خلال المصادر الكتابية التي تعود إلى تلك الفترة أن الآراميين كانوا قبائل بدوية متنقلة ذات بطون وأفخاذ، تسللت وتغلغلت في بلاد الرافدين وسوريا الداخلية حوالي أواخر الألف الثاني قبل الميلاد لظروف طبيعية واجتماعية صعبة دفعتهم، كما دفعت أبناء عمومتهم الأكاديين العموريين، إلى ترك موطنهم في شمال الجزيرة العربية ووسطها. وقد خلقوا بهجرتهم الكثير من القلق والصعوبات للممالك والشعوب في تلك المناطق. وعندما بدأت هذه القبائل بالتكاثر لم تجد القبول الكافي من الشعوب المحيطة بها، لذلك قررت القبائل الآرامية في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد استخدام الوسائل العسكرية، التي تصفها المصادر الكتابية

المضادة بالقرصنة، لمضايقة هذه الشعوب والممالك وإزعاجها. فبدأت بالتحرش والهجوم على قوافلهم التجارية والمستوطنات السكنية القريبة منهم، حتى إن حاكم دلمون في أواخر القرن الخامس عشر قبل الميلاد اشتكى إلى والي نضر -جنوب بغداد حالياً- من أن الأخلامو (حلف القبائل الآرامية) ينهبون تمور بلاده. واشتكى الملك الحيثي حاتوشيل الثالث في رسالة رسمية إلى ملك بابل قداش-من-انليل-نحو ١٢٧٥ق.م من أن حلف الأخلامو أصبح يشكل خطراً على الطريق بين المملكتين. وعثر في مدينة دور كوري كالصو عاصمة الكوشيين على رسالة فحواها أن عصابة آل حيرانة (وهي العشيرة التي طاردها وحاربها تجلات نصر الأول ١١١٢ق.م) تساندهم مجموعة من آل خصمي حاولت الاعتداء على التجار، فلاحقتهم الدوريات الآشورية. وتوضح الحوليات الآشورية أن شلمناصر الأول (سنة ١٢٧٣ق.م) شن هجوماً عسكرياً على الحيثيين والأخلامو لأنهم اقتطعوا أجزاء من مملكة خاني جليات خليفة الدولة الحورية الميتانية. ولمضايقتهم وتدخلاتهم في شؤون الحكام المحليين. وعلى كل فقد أدى استمرار هذه الحملات الآرامية إلى إزعاج الممالك المحيطة، وتكليفهم الكثير من الأموال والرجال. فدفع ذلك الدولة الآشورية إلى إرسال الحملات والبعثات العسكرية المتعددة لتأديب هذه القبائل والعشائر، مثل حملات الملوك الآشوريين أريك دين أيلو (١٣١٧-١٣٠٦ق.م) وتيكولة نينورتا الأول (١٢٤٣-١٢٠٧ق.م) وغيرهم.

وهكذا استمر الوضع بين القبائل الآرامية (الأخلامو-السوتو) والممالك المحيطة بها سجالاً، رفض وقبول، حرب وسلم، حتى وجدت هذه القبائل فرصتها المواتية لتحقيق أحلامها ببناء ممالكها السياسية. وجاءت الفرصة عند دخول شعوب البحر، في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، المنطقة مستفيدين من ضعف الدولتين الميتانية والحيثية وتأرجح الظروف السياسية في آشور بين الضعف والقوة بسبب الحروب والمشكلات الداخلية (١٠١٢-٩٧٢ق.م) بالإضافة إلى الضعف السياسي الذي ساد مصر إبان فترة حكم تحوتمس الثالث. وفي ظل هذه الأوضاع استولى الآراميون على المزيد من الأراضي والمواقع السكنية وأسسوا، في الفترة ما بين القرن الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد دولهم وممالكهم التي لم تصل في يوم ما إلى الوحدة

الكاملة على الرغم من أنها قبائل ذات عرق واحد. وربما كان سبب ذلك الإمبراطوريات المحيطة بتدخلاتها المستمرة في الشؤون الداخلية لهذه الدويلات والمشيخات الصغيرة. ومع تطورهم الثقافي الكبير، لم يتخل الآراميون عن النظام القبلي الذي جلبوه من موطنهم الأصلي، وإن كانوا في أحيان مختلفة يقومون بإنشاء أحلاف بينهم للوقوف ضد الهيمنة الآشورية. وعلى كلٍ استطاع الآشوريون أخيراً القضاء علىً آخر معاقلهم، مملكة دمشق، على يد الإمبراطور الآشوري تجلات بلاصر سنة ٧٣٣ق.م، حيث دمرها وضمها إلى مملكته وحولها إلى مقاطعة آشورية.

وأبرز ما خلفته لنا هذه القبائل السامية المهاجرة من وسط الجزيرة العربية لغتهم، وهي أقرب اللغات إلى العربية، وخطهم الذي أصبح فيما بعد أصل الخطوط السامية المختلفة. وهي، بعد العربية، من أقدم اللغات القديمة وأوسعها انتشاراً. فأول نقوشها هو نقش تل الفخرية الذي يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، ومن خلال أنماط حروفها وأشكالها وتطوراتها اللغوية قسمها العلماء إلى ثلاث مراحل:

الأولى، هي الآرامية القديمة، التي استمرت من الألف الأول إلى سنة خمسمائة قبل الميلاد، وهي في معظمها نصوص ذات طابع سياسي، وانتشرت فقط في الممالك الآرامية في كل من بلاد الرافدين وبلاد الشام.

والمرحلة الثانية، هي الآرامية الدولية التي تعد نقوشها بالآلاف منتشرة في معظم بلاد الشرق الأدنى القديم وهي التي ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد (أقدم نصوص هذه المرحلة هو النص الذي يعود إلى سنة ٤٩٥ق.م عندما استولت الدولة الأخمينية على الأراضي الكلدانية في بلاد الرافدين، حتى سقوط الدولة الفارسية (٣٣٠-٣٣١ق.م). وفي هذه الفترة (٥٠٠-٣٠٠ ق.م) حلت الآرامية كلغة عالمية في العالم القديم تدريجياً محل الأكادية لسهولتها وبساطتها، وبالذات عندما اتخذها الملك الفارسي داريوس (٥٢٢-٤٨٦ق.م) لغة رسمية للإمبراطورية. ولكن بعد سقوط الدولة الأخمينية على يد الإسكندر الأكبر، حلت اليونانية تدريجياً كلغة عالمية محل اللغة والكتابة الآرامية في العالم القديم. إلا أن الآرامية تطورت محلياً في الشرق الأوسط والجزيرة العربية وانقسمت إلى مجموعتين آرامية دولية إمبراطورية غربية، وآرامية دولية شرقية.

واشتملت المجموعة الأولى الـغربية على النبطية، والتدمرية وهي لغة مملكة تدمر، واستمـرت من القرن الأول قبل الميلاد إلـى القرن الثالـث الميلادي حين قضى عليها الإمبراطور الروماني أورليان. ولم يعثر حتى الآن منها إلا على نقوش قليلة جداً في المملكة العربية السعودية، ومنها نـقش وادي السرحان. والآرامية الفلسطينية اليهودية وهي لغة يهود فلسطين خلال القرون الأولى من اليهودية، وأشهر بقاياها الـترجوم الفلسطينـي. والآرامية الشامية المسيحية، وهي لغة مسيحيِّي بلاد الشام الأرثوذكس التي استمرت من القرن الخامس إلى الثـامن الميلادي. والآرامية السامرية، وأهم بقاياها الترجوم السامري، وتعود إلى القرن الرابع الميلادي. وبقايا الآرامية الغربـية، وهي اللهجة التـي ما زالت مسـتخدمة عنـد بعض الطوائـف المسيحـية، وخصوصاً مناطـق معلولا، وجبعدين، ونجعة.

أما المجموعة الثانية، الآرامية الدولية الشرقية، فهي كذلـك توزعت إلى عدة لهجات، هي السريـانية وهي لغة الرها التي اتخذها المسيحيون لغة أدب ودين، إلا أن انتشارها ظل محصوراً نتيجة ظهور العربية، ولكنها ما تزال مستخدمة حتى الآن وبشكل مكثف لدى مسيحيِّي الهند

نقش آرامي – قصر الحمراء بتيماء

والعراق وسوريا. واللهجة الآرامية البابلية وهي لغة أحبار يهود بابل واستمرت من القرن الرابع إلى السادس الميلادي، وأشهر بقاياها التلمود البابلي. واللهجة المندعية وهي لغة القنوصة وقد استمرت من القرن الثالـث إلى الثامن المـيلادي. واللهجة الحضرية وهي نقوش عثر عليها في موقع على بـعد خمسـين كيلاً جنوب غـرب المـوصل يـعرف بـاسم الحـضر. وقـد استمرت هذه الكتابة خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين. وبقايا اللهجة الآرامية الشـرقية وهـي المنتـشرة، حتـى يومنـا الحاضر، فـي شمال العراق، وبـالذات حول بحيرة أرميا وطور عابدين وجورجيا (السونيتة سابقاً).

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة آرامية العهد القديم التي ظهرت في أسفار العهد القديم، سفر التكوين (٣١: ٤٧)، وسفر

عزرا (٤: ٨-٦: ٨) (٧: ٢٢-٢٦)، وسفر أرميا (١٠-١١)، وسفر دانيال (٢: ٤-٧: ٢٨). وهذه الآرامية استمرت من القرن الخامس إلى القرن الثاني قبل الميلاد.

ومعظم النقوش المكتوبة بالخط الآرامي الدولي الواسع الانتشار ظهرت في المملكة في منطقة تيماء فقط عندما اتخذها نبونيد الكلداني عاصمة له، إذ نقل معه هذا النمط من الكتابة الذي استهوى الأهالي المحليين فكتبوا به نصوصهم ونقوشهم.

ويبلغ عدد النصوص الآرامية المعروفة لدينا حتى الآن ثلاثة وثلاثين نصاً، لكن لا ينفي هذا وجود نصوص آرامية في مناطق أخرى من الجزيرة العربية. فقد عثرت إحدى البعثات الفرنسية على نقش آرامي دولي في أحد المواقع بالإمارات العربية المتحدة. أما النصوص التي يُذكر أنه عثر عليها في الساحل الشرقي، فأحدها -وهو الذي عثر عليه في البحرين- يعود إلى اللهجة الآرامية الحضرية (Potts 1990: 278) وأما النقش الذي عثر عليه في موقع ثاج الأثري فيصعب تحديد نوعه لعدم وضوح الصورة الفوتوغرافية.

والنتيجة المهمة التي نخرج بها من دراسة هذه النصوص الثلاثة والثلاثين هي أنها كتبت بمفردات عربية لكن بأحرف وقواعد آرامية. وأن أقدمها يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وآخرها إلى القرن الثالث قبل الميلاد. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن جزءاً من مشكلة دراسة النقوش

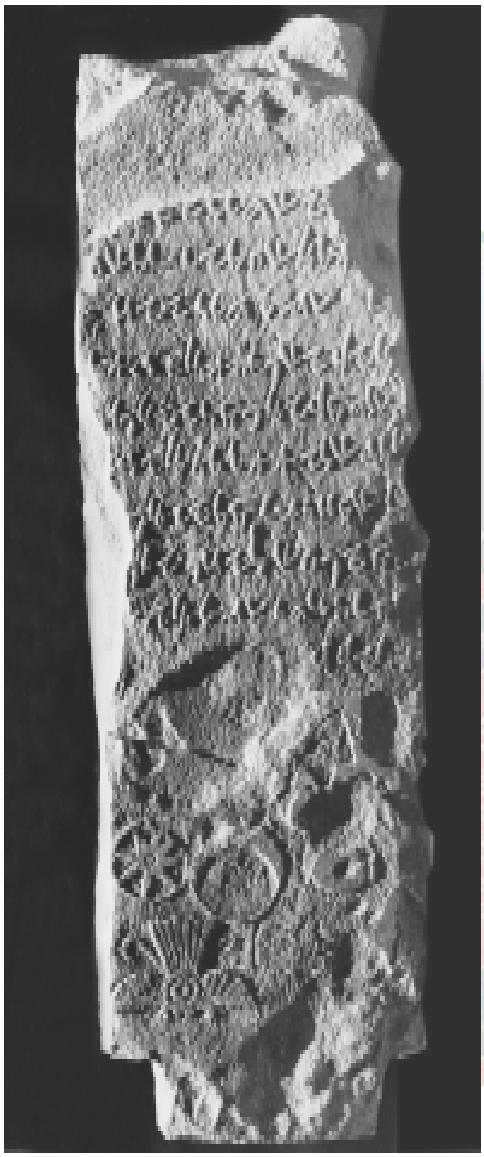

نص آرامي يشير إلى تشييد معبد للإله (ص ل م ذو دب) - مدينة تيماء

الآرامية الإمبراطورية (الدولية) هو كونها لغة لم تكن مرتبطة بشعب أو أمّة أو جنس واحد. فمعظم نقوش هذه المرحلة المعروفة لدينا لم يكتبها الآراميون أنفسهم، بل أقوام وأمم أخرى مثل الآشوريين والفرس واليهود والعرب وأكثر هذه النقوش عثر عليها في الهند. ولذا فإن تحديد الموقع الأصلي للنقش يكون بمعرفة الأخطاء اللغوية التي يرتكبها كاتب غير آرامي، ومن دراسة أسماء الأعلام والألفاظ المستخدمة. وأمّا النقوش الآرامية المعروفة في تيماء فقد قدمت العديد من أسماء الأعلام العربية الأصل التي تظهر للمرة الأولى في نقوش آرامية دولية مثل «م ع ن ت ن»، «ب ع ت و»، «ع ت ع ق ب»، «ت ي م و»، «ش ج ع ن»، «ع ب د و»، «ز د ن»، «م ع ن ن»، «ع م ر ن». وقدمت لنا كل هذه النصوص، المكتوب معظمها على شواهد قبور، ألفاظاً تظهر للمرة الأولى مثل «م ح ر ن أ» المنجرة، «ط ب ن ت أ» البيت، «ح ج ر أ» الحجر، «ن ج ر أ» النجار، «أو ن ج ر أ» الموظف، «ص د ق هـ» أعَطى-وَهَب، «ح ق ل ا» الحقل. أما المعبودات التي ظهرت في هذه المجموعة فعددها خمسة، وهي على النحو التالي «م ن و هـ» وهي الإلهة مَنَاة، «ص ل م» معبود الحرب لدى الثموديين والأنباط، لكنه عرف لدى الآراميين بأنه إله الزراعة، «س ت ج ل ا» وهي معبودة تعادل الإلهة المعروفة لدى البابليين «ش ج ل» القمر، «ا ش ي م ا» وهي معبودة عرفت في سوريا خلال القرن الثامن قبل الميلاد خصوصاً في حماة، و «ر ع ا» غير معروف.

النقوش النبطية

استخدم هذا النوع من الخطوط القبائل المعروفة باسم القبائل النبطية، وهي تلك القبائل العربية التي قطنت مواضع في شمال وشمال غرب الجزيرة العربية وسيناء. وحين ظهر الأنباط على مسرح التاريخ، خلال القرن الرابع قبل الميلاد، كانت الدولة الكبرى التي أنشأها الإسكندر المقدوني قد اقتسمها خلفاؤه، فوقعت مصر من نصيب البطالمة، أما بلاد الشام فكانت مجالاً للصراع بين السلوقيين والبطالمة. وعلى وجه التحديد حاول السلوقيون سنة ٣١٢ ق.م، وهو بداية التقويم السلوقي، إخضاع القبائل النبطية عندما حاولوا السيطرة على عاصمتهم البتراء، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل. فلم يتمكن القادة العسكريون من النيل من استقلال البتراء التي يبدو أن الأنباط استقروا بها بعد اختفاء الأدوميين الذين قضى عليهم نبونيد سنة ٥٥٢ق.م. فحل

الأنباط محل بني قيدار الذين ظهروا في القرن السابع ق.م.

ولكن أين الموقع الأصلي للأنباط؟. وما علاقتهم ببني قيدار؟ وكيف ظهر مسمى الأنباط؟ جواب ذلك بإيجاز هو أن الأنباط، من خلال ما تبينه الكتابات الكلاسيكية، كانوا في بداياتهم ذوي عادات وتقاليد وممارسات وأفكار أقرب إلى البداوة؛ بشهادة ديودور الصقلي، فقد كانوا لا يحبذون الاستقرار في مساكن ويمقتون الزراعة والصناعة، مثلهم في ذلك مثل القبائل السامية الأخرى، كالعموديين مثلاً. ولعل موطنهم الأصلي الصحاري العربية؛ إذ كانوا يعرفون باسم آخر غير الأنباط، لكنها حتماً ليست الصحاري الشمالية، وإلا لتأثروا بالقيم والمفاهيم الحضارية لدول القومية الواقعة إلى الشمال من الجزيرة العربية. كما نستبعد أنهم هاجروا من الساحل الشرقي للجزيرة العربية، وإلا لأثرت عليهم مفاهيم جنوب بلاد الرافدين لوجود علاقات بين الموقعين، أو هاجروا من جنوب الجزيرة العربية، حيث ربط الباحثون بين نظام الري المائي لدى الأنباط ولدى دول الجنوب. وعليه فمن المرجح أن تكون صحاري وسط الجزيرة العربية هي الموطن الأصلي لهذه القبائل العربية النبطية. أما علاقتهم ببني قيدار فهي حتماً علاقة استغلال المكان، حيث دفعت الهجرات النبطية هذه القبائل (بنو قيدار) إما إلى الرحيل إلى الشمال، أو الذوبان داخل شريحة المجتمع النبطي.

أما ظهور مسمى الأنباط، فيرجع إلى أنّ كلمة نبط تعني في العربية: استخراج الماء، فعندما تمكنت هذه القبائل من استحداث نظام مائي خاص بها امتازت بهذه المهارة عن غيرها من القبائل العربية الأخرى ممن كانوا يعتمدون على المصادر التقليدية للمياه. فنعتتهم هذه القبائل بالأنباط؛ لتفوقهم بهذا الفن الجديد، وهو المشابه لأنظمة الري المعروفة لدى دول الجنوب وفي عمان والإمارات العربية المتحدة وأماكن أخرى. ويبدو أن هذا الفن أو النظام المائي قد انتشر بشكل واسع بين الأنباط فيما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي خصوصاً في عهد ملكهم الوطني المعروف الحارثة الرابع (٩ق.م-٤٠ق.م) الملقب بمحب شعبه الذي بوفاته بدأت الدولة النبطية في الاضمحلال والتراجع، ثم جاءت الفرصة للإمبراطورية الرومانية فقامت بضم هذه المملكة العربية الفتية التي ظهرت على أكتاف رجالها الأقوياء، سنة ١٠٦م، منهين بذلك الوجود السياسي لهذه الدولة.

وقد أمدتنا المصادر التاريخية الكلاسيكية، بالإضافة إلى الكتابات النبطية، بمعلومات مهمة عن هذه الحضارة وتاريخها السياسي. ومن المصادر التي أمدتنا بالمعلومات التي نعرفها حتى الآن عن الأنباط، نقوشهم التي خلفوها لنا، وما تزال مجال دراسة الباحثين. ويمكن تمييز هذه النقوش بعدة نماذج -كما اقترح ليتمان-، فالنموذج الأول نقوش تذكارية قصيرة، وهي الغالبية العظمى من النقوش النبطية المعروفة حتى الآن. وهذه النقوش على سفوح الجبال في معظم المناطق النبطية الممتدة من دمشق والرقيم وصحراء النقب جنوب فلسطين شمالاً، إلى صحراء سيناء والصحراء الشرقية لمصر غرباً، وإلى العلا وحتى قرية الفاو جنوباً، وإلى حوران في الشمال الشرقي.

والنموذج الثاني نقوش الدفن، وهي النصوص التي تظهر فيها إحدى الكلمتين الدالتين على القبر، وهما «ق ب ر ا» أو «ن ف ش ا». والنموذج الثالث نقوش معمارية، وهي التي يذكر فيها اسم المبنى والباني والتاريخ. والنموذج الرابع نقوش وقفية، وهي النقوش التي يذكر فيها الشيء الموقوف واسم الإله والشخص الذي قدم الوقف. والنموذج الخامس يتمثل في النصوص النادرة جداً المعروفة بالنقوش التكريمية، فمن خلال هذه النقوش عرفنا عروبتهم الخالصة التي لا مجال للشك فيها. فهذه النصوص تعرفنا على أسمائهم الشخصية ذات الأصل العربي الخالص، سواء منها المؤنث أو المذكر مثل «و ا ل و» وائل، «ا و ش و» أوْسُ، «ا ش د و» أسد، «ز ي د و» زيْد، «ح م ي د» حَميد، «ك ل ي ب و» كُلَيْب، «م ن ص و ر و» مَنْصُور، أو «ح ن و» حنان، «م ل ح و» مليح، «ف ت ح ت» فَتْحية، وغيرها كثير. ونجد كذلك أسماء أعلام لاتينية ويونانية وعبرية لكنها قليلة جداً.

كما عرفتنا هذه النصوص النبطية على دياناتهم وآلهتهم التي عرفت لدى قبائل مختلفة في الجزيرة العربية، مثل «ذو الشرى» ويعني «ذلك الذي من شرى» وقد لقب فيما بعد «سيد العالم»، و «اللات» والتي قيل إنها معبودة القمر أو الشمس، وهي أم المعبودات و«الخرى» التي تمثل معبودة الحرب، ورمز إليها بالأسد، و«مناة» معبودة المصير، و«قيس» معبودة الجبل، وهو المعبود الدولي «هبل» أحد معبودات مكة الذي انتقل من الفينيقيين والكنعانيين إلى هذه القبائل، «شيع القوم» أي «الذي رافق القوم»، وهو معبود القوافل الذي وُصف في أحد النصوص بأنه الإله الذي لا يشرب الخمر،

ودلت هذه النصوص على أن لغة الحديث لدى القبائل النبطية كانت عربية خالصة مثل الألفاظ «ر هـ ن» رَهَنَ، «غ ي ر» غير، «ض ر ي ح» ضريح، «ب ي ت ا» البيت، «م س ج د ا» المسجد، «ا ف ك ل ا» الكاهن، «ب ل ي» بلى، وغيرها الكثير. وقد استخدم الأنباط في كتاباتهم بعض الظواهر اللغوية العربية، وعلى سبيل المثال لا الحصر «ال» التعريف العربية، بالإضافة إلى «ال» التعريف الآرامية وهي الألف في آخر الكلمة، كما استعمل الضمير «هـ م» للغائب الجمع، سواء المذكر أو المؤنث، أما ضمير المتكلمين فجاء بصيغة «ف ا». وظهرت الأداتان «د ي» كاسم موصول، و«د ت هـ» كاسم إشارة.

وظهرت كذلك أفعال بصيغة «هـ ف ع ل» المعادلة لـ «أفعل» العربية.

كما قدمت لنا النصوص النبطية المعروفة حتى الآن، خصوصاً نصوص مقابر الحجر (مدائن صالح)، البالغ عددها خمسة وثلاثين نقشاً منها ثمانية وعشرون نقشاً مؤرخاً، معلومات ومفاهيم اجتماعية وقانونية مخالفة لمفاهيمهم خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، مثل استقلال النساء في ملكية المقابر التي تدل على استقلالهن من الناحية القانونية، وأنهن يستطعن تملك أشياء خاصة بهن.

وهذه الظاهرة معروفة في الممالك الشرقية مثل زنوبيا التدمرية، وتوجد دلائل

نقش نبطي من الحجر ـ مدائن صالح

نقش نبطي مبكر – مدينة تيماء

على وجودها لدى شعوب شمال الجزيرة العربية خلال العصور الآشورية-البابلية. وما ظهور ألفاظ «ق ي ل» أي الصانع «و ص ي غ ا» أي الصائغ إلا دليل على انتشار حرفة الصناعة بمختلف أنماطها وأشكالها. كما أن ظهور النصوص المعمارية دينية أو غيرها دليل على تغير مفهومهم عن الاستقرار في مساكن مستقلة. وامتهن الأنباط مهنة الزراعة مخالفين بذلك آراء أجدادهم عنها. وتدل هذه النصوص في مدائن صالح على وجود مبدأ الثواب والعقاب، إذ يضطر المخالف أو العابث بالمقبرة أو نصها إلى دفع غرامة معينة إلى الملك أو الوالي، وأحياناً أخرى للكاهن. والكلمة الخاصة بالقانون هي «ن س خ ت» أي سجل حكومي. وأبرز ما يمكن قوله عن الخط النبطي، المؤلَّف من اثنين وعشرين حرفاً، أنه هو أصل الخط العربي الحالي، ويمكن القول إن فترة استخدام الخط النبطي المتطور عن الخط الآرامي قد امتدت منذ ظهورها في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد إلى سنة ٣٥٠ ميلادية.

وفي المملكة تركزت مواقع هذه النصوص والمخربشات في شمالها وشمالها الغربي، إذ وصل عددها في شمال الحجاز إلى ما يزيد على ١٧٦ نصاً، وحظيت منطقة تبوك بمجموعة لا بأس بها من هذه النصوص فبلغت حوالي ٨٩ نقشاً.

وحوت منطقة الوسط الشمالي لغرب المملكة على نصيب الأسد فبلغت النصوص النبطية فيها حوالي ٣٠٤ نقشاً. وقد عثر على ما مجموعه ١١٦ نقشاً في منطقة الجوف. وأسفر المسح في الوسط الشمالي عن العثور على أربعة نقوش نبطية، وعلى نقش واحد في الجنوب الغربي للمملكة العربية السعودية (أطلال١٣ ، ١٩٩٠ : ٤٧). وعثر حتى الآن على ثلاثة نقوش نبطية في قرية الفاو جنوب وسط الجزيرة العربية.